المحاضرة العشرون

وَاعْلَمْ يَا بُنَيَّ أَنَّ الرِّزْقَ رِزْقَانِ رِزْقٌ تَطْلُبُهُ وَرِزْقٌ يَطْلُبُكَ فَإِنْ أَنْتَ لَمْ تَأْتِهِ أَتَاكَ مَا أَقْبَحَ الْخُضُوعَ عِنْدَ الْحَاجَةِ وَالْجَفَاءَ عِنْدَ الْغِنَى إِنَّمَا لَكَ مِنْ دُنْيَاكَ مَا أَمْلَحْتَ بِهِ مَثْوَاكَ وَإِنْ جَزِعْتَ عَلَى مَا تَفَلَّتَ مِنْ يَدَيْكَ فَاجْزَعْ عَلَى كُلِّ مَا لَمْ يَصِلْ إِلَيْكَ اسْتَدْبِرْ عَلَى مَا لَمْ يَكُنْ بِمَا قَدْ كَانَ فَإِنَّ الْأُمُورَ أَشْبَاهُ وَلَا تَكُونَنَّ مِمَّنْ لَا تَنْفَعُهُ الْعِظَةُ إِلَّا إِذَا بَالَغْتَ فِي إِيلَامِهِ فَإِنَّ الْعَاقِلَ يَتَّعِظُ بِالْأَدَبِ وَالْبَهَائِمُ لَا تَتَّعِظُ إِلَّا بِالضَّرْبِ الْمُوجِعِ عَنْكَ وَارِدَاتِ الْهُمُومِ بِعَزَائِمِ الصَّبْرِ وَحُسْنِ الْيَقِينِ مَنْ تَرَكَ الْقَصْدَ جَارَ الصَّاحِبُ مُنَاسِبٌ وَالْمَنِيَّةُ مَنْ هَدَفَ غَيْبُهُ وَالْهَوَى شَرِيكُ الْعَمَى رُبَّ بَعِيدٍ أَقْرَبُ مِنْ قَرِيبٍ وَقَرِيبٍ أَبْعَدُ مِنْ بَعِيدٍ وَالْغَرِيبُ مَنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ حَبِيبٌ.

معاني المفردات:

١ـ الخضوع: التواضع

٢ـ الجفاء: يُقال: جفا صاحبه أي أعرض عنه، ضد واصله وآنسه

٣ـ جزعت: وجَزِعَ منه: لم يصبر عليه فأظهر الحزن أو الكدر

٤ـ الإيلام: آلمه إيلاماً، أوجعه

٥ـ واردات الهموم: طوارق الأحزان

٦ـ العزائم: العزم: الثبات والشدة، العزائم: الإرادة الموكدة

شرح النص

(وَاعْلَمْ يَا بُنَيَّ أَنَّ الرِّزْقَ رِزْقَانِ: رِزْقٌ تَطْلُبُهُ، وَرِزْقٌ يَطْلُبُكَ، فَإِنْ أَنْتَ لَمْ تَأْتِهِ أَتَاكَ)
بني: تصغير كلمة ابني للتعطيف والتحنن لا لقلة الشأن.
إنَّ الرزق شكلان: رزق أنت تسعى إليه، ورزق هو يأتيك فلا تحرص كثيراً لأنَّ الرزق المقدر لك يأتيك، ورد في نهج البلاغة أنَّ أمير المؤمنين ع قال: وَالحَظُّ يَأتي مَن لَا يَأتِيهِ، ولكن هذا ليس معناه أن لا يسعى الإنسان بطلب الرزق بل نرى أنَّ الأئمة عليهم السلام يوصون بالهجرة لمكان آخر عند ضيق الرزق في البلاد.

وَإِذَا رَأَيْتَ الرِّزْقَ ضَاقَ بِبَلْدَةٍ ... وَخَشِيتَ فِيهَا أَنْ يُضِيقَ المَكْسَبُ
فَارْحَلْ فَإِنَّ أَرْضَ اللهِ وَاسِعَةُ الفَضَا ... طُولاً وَعَرْضاً شَرْقُهَا وَالمَغْرِبُ

(مَا أَقْبَحَ الْخُضُوعَ عِنْدَ الْحَاجَةِ، وَالْجَفَاءَ عِنْدَ الْغِنَى) قبيح أن تخضع لإنسانٍ عندما تحتاج إليه، وتتعالى عليه عندما تغنى فإنَّ ذلك دليل على خسة النفس.

(إِنَّمَا لَكَ مِنْ دُنْيَاكَ مَا أَصْلَحْتَ بِهِ مَثْوَاك) مثواك: آخرتك، في هذه الكلمات تحريض لانتهاز الدنيا في عمارة الآخرة.

آراء الشرّاح لنهج البلاغة:

الشيخ ابن ميثم البحراني قدس سره: نبه الإمام عليه السلام على بذل المال في وجوه البر والقربات لغاية إصلاح الآخرة وأراد بـ ماله من دنياه - ما يملك نفعه دائماً ولذلك حصره بـ (إنَّما) لأنه القدر المنتفع به على الحقيقة، والذي تبقى ثمرته لاستلزام بذله تحصيل الملكات الفاضلة المستلزمة للثواب الدائم والنعيم المقيم في الآخرة، ما أصلحت به مثواك من دنياك هو ما يبقى لك منها وكل ما هو باق لك منها ينبغي أن يحظى بعنايتك.

الشيخ محمد جواد مغنية قدس سره: أبداً لا فرق بين من يملك الملايين ومن يملك العشرات ما دام وعاء البطن لا يقبل المزيد من الطعام ومساحة الجسم لا تتجاوز المقرر من اللباس، والعمر إلى أجل، وإلى التفريقِ والشتاتِ ما جمع المرء وما كسب، فعلامَ التناحر على الحطام.

الشيخ محمد عبده: ما أصلحت به مثواك أي منزلتك من الكرامة في الدنيا والآخرة.

السيد محمد تقي النقوي طيب الله ثراه: أي إنَّ لك من دنياك ما يوجب إصلاح منزلتك وكرامتك في الدنيا والآخرة أما ما سواه من الأموال والذخائر فليس لك بل هو للوارث بعد موتك.

الشارح المعتزلي: هذا من كلام رسول الله ص: يبنَ آدم ليسَ لكَ من مالكَ إلا ما أكلتَ فأفنيتَ أو لبستَ فأبليتَ أو تصدقتَ فأبقيتَ.

ورد في نهج البلاغة أنَّ أمير المؤمنين ع قال: فَلتَكُن مَسأَلَتُكُ فِيمَا يَبقى لَكَ جَمَالَهُ وَيُنفَى عَنكَ وَبَالَهُ، فَالمَالُ لَا يَبقى لَكَ وَلَا تَبقَى لَهُ، وَاعلَمْ أنَّكَ إنَّمَا خُلِقتَ للآخرَةِ لَا للدُّنيَا وَللفَنَاءِ لَا للبَقَاءِ وَللمَوتِ لَا للحَيَاةِ.

(وَإِنْ جَزِعْتَ عَلَى مَا تَفَلَّتَ مِنْ يَدَيْكَ فَاجْزَعْ عَلَى كُلِّ مَا لَمْ يَصِلْ إِلَيْكَ) الجزع: عدم الصبر عند نزول المكروه، التفلت: التملص أو الذهاب، ويعني إن لم تسيطر على فقدانك مما في يديك، فهناك أشياء كثيرة في الكون لم تصل إليك فاجزع عليها، فكما أنَّ الجزع على ما لم يصل إليك قبيح فإنَّ ما فات عنك أيضاً لم يصل إليك فلم هذا الجزع وهو غير لائق للإنسان لأنه مثل الجزع على ما لم يصل أصلاً.

آراء الشرّاح لنهج البلاغة:

الشيخ محمد جواد مغنية قدس سره: هذه الحكمة بالغة دامغة، فثروة الكون لا حد لها أما حاجتك فلها حد وأنت تطلب المزيد وتحزن إذا لم تبلغ ما تريد، وعلى منطقك هذا ينبغي أن تبكي وتندب لأنك لا تملك الكون بأرضه وسماءه، وأي فرق من حيث النتيجة بين ما ذهب من مالك وبين ما لم تنل من البداية.

الشيخ ابن ميثم البحراني قدس سره: هنا نبه الإمام عليه السلام على ترك الأسى والجزع على ما يخرج من يد الإنسان والمال، كالذي لم يصل إليه في أنه ليس برزق له وليس مما قضى الله به، لكن هناك قبيح وغير محقق فينبغي أن لا يحصل الجزع ها هنا.

الشيخ محمد عبده: الذي يجزع على ما فاته كالذي يجزع على مالم يصله والثاني لا يُحصر فينال فالجزع عليه غير لائق فكذا الأول.

الشارح المعتزلي: لا ينبغي أن تجزع على ما ذهب من مالك كما لا ينبغي أن تجزع على ما فاتك من المنافع والمكاسب فإنه لا فرق بينهما إلا أنَّ هذا حصل وذلك لم يحصل بعد، وهذا فرق غير مؤثر لأنَّ الذي تظن أنه حاصل لك غير حاصل لك في الحقيقة، وإنما الحاصل في الحقيقة ما أكلته ولبسته وأما المخزونات فلعلها ليست لك.

(اسْتَدِلَّ عَلَى مَا لَمْ يَكُنْ بِمَا قَدْ كَانَ، فَإِنَّ الْأُمُورَ أَشْبَاه) قس الأمور المستقبلية بما قد مضى منها فإنَّ الأمور يشبه بعضها بعضاً والمقصود من هذا الكلام: إنَّ ما لم يوجد لك مثل ما وجد لك في عدم البقاء، فيُعلم مقياس الأمور المستقبلية بالنظر إلى الأمور الماضية.

آراء الشرّاح لنهج البلاغة:

يقول أحد الشارحين: وهذا بيان للزوم فطنة الإنسان إلى المستقبل حتى يعد العدة فإنَّ الأمور أشباه سابقاً ولاحقاً ومقارنة.

الشيخ ابن ميثم البحراني قدس سره: أمر الإمام ع بقياس ما لم يحدث من أمور الدنيا وتقلباتها على ما كان منها وذلك أن يقيس نفسه وما ترغب فيه من متاع الدنيا على ما سبق من أهلها ومتاعها فتجده مثله فتحكم بلحوق حكمه له وهو التغيير والزوال فيستلزم ذلك الاعتبار.
وكان يقال: إذا أردتَ أن تنظرَ الدنيا بعدكَ فانظرها بعدَ غيركَ.

الشيخ محمد جواد مغنية قدس سره: تصفح أحوال الذين جمعوا أو حرصوا ماذا حدث لأموالهم بعد الموت وقس عليها ما في يدك الآن من مال وحطام.

(وَلَا تَكُونَنَّ مِمَّنْ لَا تَنْفَعُهُ الْعِظَةُ إِلَّا إِذَا بَالَغْتَ فِي إِيْلَامِهِ، فَإِنَّ الْعَاقِلَ يَتَّعِظُ بِالْآدَابِ، وَالْبَهَائِمَ لَا تَتَّعِظُ إِلَّا بِالضَّرْبِ) لوم الإنسان مثل ضرب الحيوان وكلاهما مذمومان، فلا تكونن ممن لا تنفعه الموعظة إلا إذا بالغت في لومه.

وكان يقال: اللَّئيمُ كالعبدِ، والعبدُ كالبهيمةِ عتْبُها ضَربُها
وهو قول الشاعر: العبدُ يُقرَعُ بالعَصَا والحُرُّ تكفيهِ المَلَامَة.

(اطْرَحْ عَنْكَ وَارِدَاتِ الْهُمُومِ بِعَزَائِمِ الصَّبْرِ وَحُسْنِ الْيَقِينِ) صبر نفسك على المكروه وادفع الهموم بالصبر وقوة اليقين بالله.

(مَنْ تَرَكَ الْقَصْدَ جَارَ) القصد: الطريق المعتدل، جار: ظلم.

فإنَّ خير الأمور أوسطها والفضائل تحيط بها الرذائل فمن تعدى هذه يسيراً وقع في هذه.

(وَالصَّاحِبُ مُنَاسِبٌ) أي كالنسب لك فيكون صديقك مثل ذو النسب بالسبب وهو الصداقة والمحبة فله من الحقوق مثل ما لذي النسب، وكان يقال: الصديقُ نسيبُ الروحِ والأخُ نسيبُ الجسمِ، ويقول إبراهيم الكوني: الفراق أنبل لأنه شهادة الروح والنزف أرذل لأنه برهان البدن.

لَحَى اللهُ الفِرَاقَ وَلَا رَعَاهُ ... فَكَمْ قد شَكَّ قَلْبِي بِالنِّبَالِ

أُقَاتِلُ كُلَّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ... وَيَقْتُلُنِي الفِرَاقُ بِلَا قِتَالِ

(وَالصَّدِيقُ مَنْ صَدَقَ غَيْبُه) أي تحفظه في غيبته كما في حضوره.

(وَالْهَوَى شَرِيكُ الْعَمَى) الهوى: اتباع ميول النفس، وهذا مثل قولهم: حُبُّكَ للشَّيءِ يُعمِي ويُصِم.

(وَرُبَّ بَعِيدٍ أَقْرَبُ مِنْ قَرِيبٍ، وَقَرِيبٍ أَبْعَدُ مِنْ بَعِيدٍ) ربما يجفو القريب بما لا يجفو به البعيد ومثلاً: سلمان المحمدي الفارسي أقرب من أبو لهب وهو عم النبي ص.

(وَالْغَرِيبُ مَنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ حَبِيبٌ) الحب هو تجرد الإنسان عن ذاتياته وأنانياته لأجل مصلحة الآخر، والمراد هنا بالحبيب هو المحب لا المحبوب. فإنَّ الغريب ليس من كان في البلاد النائية بل من لم يجد أحداً يحبه.